وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

- ومصائره ... خطاب المعتزلة في العقل والحرية

السبت, 17 أبريل 2010
* شمس الدين الكيلاني

لعل مصطلح «الاعتزال» قد تم تداوله حين أطلق أول مرة على جماعة من الصحابة، اتخذوا موقف الحياد في صراع علي ومعاوية، وتواقت ظهور «مذهب الاعتزال» مع الخلاف الناشب بين واصل بن عطاء (تـ الكبيرة) أكافر هو أم مؤمن؟ فكان موقف)748م) وأستاذه الحسن البصري (تـ 720م) في مسألة مرتكب واصل أنه في «منزلة بين منزلتين» وهو أشبه بالرأي السياسي، المقصود منه تحديد موقف من الأمويين، فأخذوا موقفاً وسطاً ما بين الخوارج والمرجئة.

مهد لحركة المعتزلة القدريون (الذين قالوا بقدرة الإنسان واستطاعته على الفعل المستقل) كمعبد الجهني وعمرو المقصوص، وغيلان الدمشقي الذي كتب للخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز «فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضي، أو يقضي على ما يعذب عليه..؟». وفي هذه العبارات يقرر حرية الاختيار. وخطا الحسن البصري الخطوة الأولى نحو النظر العقلي، التجريدي الذي اتبعه المعتزلة في بحوثهم النظرية. وبدءاً من لحظة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد تحددت معالم الطريقة والمذهب المعتزليين.

1- كانت حركة الاعتزال تنظيراً عقلياً للدين، فأعملوا العقل في النص)، وأخضعوا)تحكيم العقل: باستثناء العبادات - لمصلحة - تفسيرهم للمنطق العقلي، وساقوا أي اختلاف ظاهر بين النص والعقل الأخير. لم تقتصر صياغتهم (العقلية) على وحدانية الله، وإنما تناولت مسائل الإيمان والنبوة، والأخلاق والسياسة. والصلة بين الله/ العالم، الإنسان. ووضعوا أسس (علم الكلام) القائم على المحاكمة العقلية (الأحاديث)في الدين، ووسيلة لتأكيد العقائد الإيمائية. وكان (النظام) يرى أن حجة العقل تنسخ الأخبار.

شاركوا في شكل فعال في الحياة الثقافية التي بلغت ذروة غناها وتنوعها في صدر الدولة العباسية، وتمكنوا من رد هجمات المانوية، وتفكيك أطروحاتها بإرغامها على الاحتكام الى العقل، «الشيء الذي يعني نفي الغنوص من اللحظة الأولى، وتجلى منطقهم العقلي في كل الموضوعات التي تطرقوا اليها. وقد اتفق مؤرخو الفرق الإسلامية على تحديد (أصول) المذهب المعتزلي وإن اختلفوا في طريقة ترتيبهم لهذه الأصول، وعرض الخياط (المعتزلي) هذه الأصول «التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

أ - التوحيد: نفي الصفات، نفي قِدم القرآن الكريم. أخضعوا (التوحيد)، الذي يتميز به المسلمون جميعاً، لمنطقهم العقلي الخاص فالتوحيد عند القاضي عبد الجبار (تـ 1024م) «هو العلم بما يتوحد الله جل وعز من الصفات التي يختص بها.. نحو أنه قديم وما عداه محدث. واحد لا ثاني له»، وأنه واحد «ليس كمثله شيء». ونفوا الصفات الأزلية عن الله تعالى، لتنزيهه عن التعدد والكثرة. وإذا تحدثوا عن الصفات، فإنهم يقولون على طريقة أبو هذيل العلاف «إنه عالم بعلم إلاّ إن علمه هو نفسه، وقادر بقدرة وقدرته هي نفسه»، أو مثل الجبائي: «إن الله عالم لنفسه، وقادر لنفسه». وانتقلوا من هذا ليقرروا، أن القرآن الكريم (كلام الله)، ليس «بقديم» أي ليس من الصفات المعادلة لذات الله، وإنما هو حادث، أي مخلوق.

ب - العدل: حرية الشخص البشري/ وقدرة العقل على معرفة القيم. أعمل المعتزلة العقل في مفهوم العدل الإلهي، ليقرروا حرية الشخص البشري، وأن العقل يستطيع التمييز بين الخير والشر. فقالوا: «إن الله تعالى لا يقبل القبح ولا يختار إلا الحكمة والصواب». والرب منزه أن يضاف إليه الشر والظلم، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً، ولو خلق العدل كان عادلاً» واتفقوا على «أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير». فلو كانت إرادة الله تتعلق بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مُرادين لله، فيكون المريد موصوفاً بالخيرية والشرية والعدل والظلم، وذلك محال على الله، ولو كانت أفعال الإنسان مقررة من الله لبطل الثواب والعقاب، وأصبح لا معنى لهما. وبطل الأمر والنهي، وبعثة الأنبياء، والمساءلة والعقاب. ليصلوا الى تقرير «أن أفعال العباد حادثة من قبلهم ومن مفهومهم العقلاني (للعدل) يصلون الى نتيجة مفادها: أنهم اعتمدوا على العقل في مسألة تقدير الشر والخير، في ما يتعلق بالشؤون الإنسانية، واستثنى بعضهم العبادات. فهذه الأخيرة يقررها «النص». فالإنسان قادر أن يميز - قبل ورود الشرائع - ذاتيان) في الأفعال والأشياء.)الخير عن الشر، والحسن عن القبيح، لأن الشر والخير، الحسن والقبيح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لذا فالعقل يستطيع قبل ورود الشرع اكتشاف طبيعة الأفعال والأشياء الخيّر منها والشرير. وهذه هي حال الناس قبل ورود الأديان فقد كانت تتحاكم الى العقل، فنرى العقلاء منهم يستقبحون الظلم والعدوان، ويستحسنون نجدة المظلوم وتخليص الهلكى.

جـ - الوعد والوعيد: (لا شفاعة للإنسان سوى أفعاله). ينطلق المعتزلة من تقرير حقيقة: إن الله صادق بوعده للصالحين بالثواب، وللعصاة بالعقاب، وأنه سيفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة. ليصلوا الى القول: إن كل الوساطات، والشفاعات لا معنى لها، فلكل امرئ ما سعى، ويصبح التقرب الى الأولياء، أو الى غيرهم لا معنى له.

د - الخلافة اختيار: رأت أكثرية المعتزلة أن الإمامة أو الخلافة تقوم على اختيار الأمة، ولا تنعقد إلا بالانتخاب، وزاد بعض المعتزلة على هذا شرطاً آخر أنه لا بد لانعقاد الإمامة من اتفاق الأمة كلها. نمت هذه الحركة الفكرية في قلب حضارة زاهية، مدينية وحضرية، ترعى الثقافة، ولا تخشى الاختلاف، طالما لا يرتبط بالسلاح، ولكنها بدأت تنحسر وتتراجع في ما بعده، وساهم في ذلك انسياق المعتزلة - مع المأمون، والمعتصم - الى حمل الناس بالقوة الى مذهبهم، مما سهل تصفيتهم سياسياً واجتماعياً وثقافياً عقب الانقلاب عليهم في عهد المتوكل، الذي كان من نتائجه انقطاع الصلة بين الفلسفة والاعتزال، بين المعقول الديني والمعقول العقلي.

* كاتب سوري

This file was downloaded from QuranicThought.com